بسم الله الرحمن الرحيم

٩٩ ـ سورة الزلزلة

قال ابن كثير : مكية . ورجّح السيوطيّ أنها مدنية . وآيها ثمان . روى الترمذيّ[1] عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ (إِذَا زُلْزِلَتِ) تعدل نصف القرآن . و (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن . و (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) تعدل ربع القرآن . وسيأتى سر ذلك فى تفسير سورة الكافرين والإخلاص إن شاء الله تعالى .

(١) أخرجه فى : ٤٢ ـ كتاب ثواب القرآن ، ١٠ ـ باب ما جاء فى (إِذَا زُلْزِلَتِ) .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا)

[٢] (وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)

« إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا » أى أصابها ذلك الزلزال الشديد والاهتزاز الرهيب . فالإضافة للتفخيم أو الاختصاص، بمعنى الزلزال المخصوص بها. وهى الرجة التى لا غاية وراءها. والأقرب الأول ، لآية[1] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ) وقرئ بفتح الزاى . وقد قيل هما مصدران . وقيل المفتوح اسم والمكسور مصدر . وهو المشهور « وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » أى قذفت ما فى باطنها من كنوز ودفائن وأموات وغير ذلك ، لشدة الزلزلة وتشقق ظهرها . كقوله[2] (وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ) والأثقال جمع (ثقل) بفتحتين . وهو متاع المسافر وكل نفيس مصون . وهذا على الاستعارة . ويجوز أن يكون بكسر فسكون بمعنى حمل البطن ، على التشبيه أيضاً . لأن الحمل يسمى ثقلا كما فى قوله تعالى[3] (فَلَمَّآ أَثْقَلَت) قاله الشريف المرتضى فى (الدرر) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا)

[٤] (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)

[٥] (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا)

---

(١) [٢٢ / الحج / ١] .
(٢) [٨٤ / الانشقاق / ٣و٤] .
(٣) [٧ / الأعراف / ١٨٩] .

[٦] (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ)

[٧] (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ)

[٨] (وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ)

« وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا » أى قال من يكون من الإنسان شاهداً لهذا الزلزال ، الذى فجأه ودهشه ، ولم يعهد مثله : مالهذه الأرض رجّت هذه الرجة الهائلة ، وبعثر ما فيها من الأثقال المدفونة « يَوْمَئِذٍ » بدل من (إذا) أى فى ذلك الوقت « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » أى تبين الأرض بلسان حالها ، ما لأجله زلزالها وإخراج أثقالها . فتدل دلالة ظاهرة على ذلك . وهو الإيذان بفناء النشأة الأولى وظهور نشأة أخرى . فالتحديث استعارة أو مجاز مرسل مطلق الدلالة .

قال أبو مسلم : أى يومئذ يتبين لكل أحد جزاء عمله . فكأنها حدثت بذلك . كقولك (الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة) فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة، تحدث أن الدنيا قد انقضت ، وأن الآخرة قد أقبلت .

« بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا » الباء سببية متعلق بـ(تحدث) أى تحدث بسبب إيحاء ربك لها ، وأمره إياها بالتحديث . والإيحاء استعارة أو مجاز مرسل لإرادة لازمه . وهو إحداث ماتدل به على خرابها .

وقال القاشانىّ : أى أشار إليها وأمرها بالاضطراب والخراب وإخراج الأثقال . يعنى الأمر التكوينىّ . وهو تعلق القدرة الإلهية بما هو أثر لها « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا » أى ينصرفون عن مراقدهم إلى مواطن حسابهم وجزائهم، متفرقين سعداء وأشقياء « لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ » أى ليريهم الله جزاء أعمالهم «فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ» أى فمن عمل فى الدنيا وزن ذرة من خير ، يرى ثوابه هنالك . والذرة النملة الصغيرة وهى مثل فى الصغر . وقيل الذر هو الهباء الذى يرى فى ضوء الشمس إذا دخلت من نافذة « وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ » أى ومن كان عمل فى الدنيا وزن ذرة من شر ، يرى جزاءه ثمة .

تنبيهات :

الأول ـ دل لفظ (من) على شمول الجزاء بقسميه ، للمؤمن وغيره .

قال الإمام : أى من يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره، فإنه يراه ويجد جزاءَهُ . لافرق فى ذلك بين المؤمن والكافر . غاية الأمر أن حسنات الكفار الجاحدين لاتصل بهم إلى أن تخلصهم من عذاب الكفر، فهم به خالدون فى الشقاء. والآيات التى تنطق بحبوط أعمال الكفار، وأنها لاتنفعهم ، معناها هو ماذكرنا. أى أن عملًا من أعمالهم لاينجيهم من عذاب الكفر، وإن خفف عنهم بعض العذاب الذى كان يرتقبهم ، على بقية السيئات الأخرى ، أما عذاب الكفر نفسه فلا يخفف عنهم منه شيء . كيف لا ، والله جل شأنه يقول[1] (وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا، وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا، وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ) فقوله (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا) أصرح قول فى أن الكافر والمؤمن فى ذلك سواء . وإن كلًّا يوفى يوم القيامة جزاءه . وقد ورد أن حاتمًا يخفف عنه لكرمه . وأن أبا لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبيّ ﷺ . وما نقله بعضهم من الإجماع على أن الكافر لاتنفعه فى الآخرة حسنة ولا يخفف عنه عذاب سيئةٍ ما ، لا أصل له . فقد قال بما قلناه كثير من أئمة السلف رضى الله عنهم . على أن كلمة (الإجماع) كثيراً مايتخذها الجهلاء السفهاء آلة لقتل روح الدين ، وحجرا يلقمونه أفواه المتكلمين . وهم لايعرفون للإجماع الذى تقوم به الحجة معنى ، فبئس مايصنعون . انتهى .

وقد سبقه الشهاب فى (حواشيه) على القاضى ، حيث ناقش صاحب المقاصد فى دعواه الإجماع على إحباط عمل الكفرة . وعبارته : كيف يدعى الإجماع على الإحباط بالكلية ، وهو مخالف لما صرح به فى الآية ؟ والذى يلوح للخاطر ، بعد استكشاف سرائر الدفاتر ، أن الكفار يعذبون على الكفر بحسب مراتبه . فليس عذاب أبى طالب كعذاب أبى جهل. ولا

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] .

عذاب المعطلة كعذاب أهل الكتاب ، كما تقتضيه الحكمة والعدل الإلهىّ . انتهى .

الثانى ـ قال فى (الإكليل) : فى هاتين الآيتين ، الترغيب فى قليل الخير وكثيره . والتحذير من قليل الشر وكثيره . أخرج عبد الرزاق عن ابن مسعود قال : هذه الآية أحكم آية فى القرآن . وفى لفظ (أجمع) .

وسمّى[1] رسول الله ﷺ هذه الآية الجامعة الفاذة ، حين سئل عن زكاة الحمير فقال : ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُو * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُو) . وروى الإمام أأحمد[2] عن صعصعة بن معاوية . عم الفرزدق ، أنه أتى النبىّ ﷺ فقرأ عليه (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُو) إلخ . قال : حسبى . لا أبالى أن لا أسمع غيرها . ورواه النسائىّ فى تفسيره .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٩٩ ـ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ، ١ ـ باب قوله فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُو ، حديث رقم ١١٨٥ ، عن أبى هريرة .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٩ من الجزء الخامس من المسند .